ثقافة وفنون

ميخائيل نعيمة في ميلاده الـ135... طوق نجاة روحاني من مادية مظلمة

لبنان يتذكّر «ناسك الشخروب» بدراسات وشهادات وغناء ورسم



نعيمة مع ابنة شقيقه وابنتها عائلته التي عاش معها (الشرق الأوسط)

بيروت: سوسن الأبطح

نُشر: 16:19-16 أكتوبر 2025 م . 24 ربيع الثاني 1447 هـ

يحتفل لبنان، بعد غدٍ، بمرور 135 عاماً على ولادة «ناسك الشخروب»، تحت عنوان «وشلٌ من بحر»، بمشاركة بحّاثة، وأدباء وفنانين ومحبي الأدب، وعائلة نعيمة. وهذا الاحتفال مؤجل من العام الماضي بسبب الحرب.

احتفالية ميخائيل نعيمة تجمع بين الدراسات الأكاديمية، والموسيقى، والقراءات النثرية والشعرية، والشهادات الحية ممن عايشوا الأديب وشاركوه شطراً من عمره، وهو ما سيمنح يوم الثامن عشر من أكتوبر (تشرين الأول) الحالي، نكهة إنسانية تضاف إلى مسحة الأدب الروحانية التي امتازت بها كتابات نعيمة، وتأملاته الوجودية.

بين أصحاب الشهادات سامية قربان، تيريز ضاهر، ورانيا فيفونا، أسماء مجهولة في عالم الأدب، لكنهن كنّ جارات نعيمة، وعلى تماسّ معه، يروين حكاياته، وانطباعاتهن عنه. من يعرفه أكثر من تيريز، صاحبة صالون الحلاقة النسائي «سي جولي» الذي كان في الطابق الأرضي للعمارة التي قطنها نعيمة في منطقة الزلقا، طوال السنوات العشرين الأخيرة من حياته.

و«جولي» أي (جميل) بالفرنسية، هو كذلك اسم المركب الذي أقله من لبنان إلى الناصرة في فلسطين، يافعاً، حين ذهب لإتمام دراسته هناك. و«كأنما الجمال هو الذي كتبه القدر لميخائيل نعيمة»، تقول حفيدته، سهى نعيمة، لـ«الشرق الأوسط». وهي التي مع «جمعية ميخائيل نعيمة» (ميماسونا) حضّروا لهذا اليوم الأدبي الطويل، الذي يُقام في «مسرح الأخوين رحباني» في أنطلياس.

ندى كلّاس، أمينة سر الجمعية، تفتتح الجلسات في الصباح، ومن بعد، كلمة وزارة الثقافة راعية الحفل.

والدكتورة الروسية أولغا فليونوفا، لها كلمة من وحي بحثها العلمي عن نعيمة الذي فاز، عام 2023، بأفضل دراسة في مجلة «سوراه» الروسية العلمية المحكمة.

أما شهادة رانيا فيفونا فمختلفة، لأنها عرفت نعيمة صغيرة، وهي من عمر حفيدته سهى، كانت تلعب معها بحضور وتحت أعين نعيمة، الذي كان يضحك معهما، وهو يجالسهما تلعبان. كل واحد من أصحاب الشهادات المسجلة أو التي يحضر أصحابها، يعرف الأديب من زاويته، وربطته به علاقة مختلفة عن الآخر، من حبيب يونس، إلى إسكندر داغر، خالد حميدان، أميل معلوف، جوزيف أبي ضاهر، هنري زغيب، ميخائيل مسعود وغالب غانم، وبالطبع سهى حداد الحفيدة الأقرب.

أربعون كتاباً تركها لنا ميخائيل نعيمة، لكنْ اثنان منها يحتفل بيوبيلهما الذهبي، ومرور خمسين سنة على صدورهما. أولهما «نجوى الغروب»، ميزته أنه أصدره وهو في الرابعة والثمانين كان ذلك عام 1973.

سهى كانت شاهده على كتابته «بدأه في أول الربيع وانتهى منه في آخر الصيف. استغرق الأمر أشهراً ليجهز الكتاب». هو مناجاة أشبه بالصلاة من ميخائيل لربه. ابن أخيه نديم اختار قطعة منه ليضعه على ضريح نعيمة في الشخروب.

نقرأ عند زيارة الضريح: «طفلك أنا يا ربي. وهذه الأرض البديعة الكريمة الحنون التي وضعتني في حضنها، ليست سوى المهد، أدرج منه إليك». الكتاب غالٍ على قلب سهى، لأن فيه يصف ديناميكية الحياة التي جمعته مع أمها مي (ابنة أخيه) ومعها، في منزلهم بالزلقا، والصيفيات التي كانوا يقضونها في بسكنتا. وهو الفصل الذي سيقدم مقروءاً بصوت نزار طه حجّ أحمد خلال الاحتفال.

الكتاب الثاني الذي بلغ الخمسين هو «من وحي المسيح» (صدر عام 1974). مناجاة يتوجه بها الأديب إلى السيد المسيح، الذي كانت علاقته الإيمانية به وثيقة «لكنه ليس إيماناً تقليدياً، مؤسساتياً، وإنما كان له إيمانه الخاص به»، بحسب سهى، وكما شرح نعيمة أكثر من مرة.

في هذا الكتاب يقول مخاطباً السيد المسيح: «ما كتبته من وحيك ليس إلا وشلٌ من بحر». وهي العبارة التي استلَّتها سهى والجهة المنظمة لتجعل منها عنواناً لهذا النهار، بمعنى أن «ما يحكى طوال هذه الاحتفالية ليس إلا وشلٌ (أي قطرة) من بحر ميخائيل نعيمة».

وتضيف الحفيدة: «مع احترامي الكامل لكل عظماء بلادي؛ فإن ميخائيل نعيمة كما كل الاستثنائيين في هذا العالم كان له صوته الخاص، وبصمته الفريدة»، مضيفة: «أما شخصياً، فأنا أعشقه لأنني تربيت على يديه، ووُلدت في بيته، بينما كان أبي قد انفصل عن أمي. واعتبرني جدي ميخائيل بعد مولدي هدية اللّه له في نهاية حياته، لهذا مهما فعلت، فأنا لا أسديه جزءاً مما أعطاني».

تعشق سهى من كتب نعيمة «مرداد» و«مذكرات الأرقش»، و«اليوم الأخير» و«نجوى الغروب». أما الكتاب الذي اختتم به إصداراته قبل وفاته فهو «ومضات»، عبارة عن شذرات وحكم. تخبرنا سهى أن نعيمة بقي يكتب بيده حتى قبل وفاته في 28 فبراير (شباط) 1988 بيوم واحد؛ حيث كتب لها: «إلى العزيزة سهى»، متمنياً لها مستقبلاً باهراً. لكنه قبلها بيومين، كان قد دوَّن تأملات على قصاصة وضعها في جيب بدلته، وما زالت تحتفظ بها. خبأت والدتها (مي) التي كانت تعنى به، كل شيء يخصه، حتى أعقاب سجائره الأخيرة، وجواربه والمحرمة الورقية التي مسحت بها فمه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومن يزُر منزله يستطِع أن يراها.

أما «همس الجفون» الديوان الشعري الوحيد المطبوع لناسك الشخروب؛ فبعض قصائده بلغت المائة، وستُلقى وتغنى خلال الاحتفالية، بينها: «العراك»، «ترنيمة الرياح»، و«فتّش لقلبك» و«أغمض جفونك تبصر» التي يقول فيها:

«إذا سماؤكَ يوماً - تحجبت بالغيوم - أغمضْ جفونكَ تبصرُ - خلفَ الغيومِ نجومْ» وتنتهي: «وعندما الموتُ يدنو - واللّحدُ يفغرُ فاهْ - أغمضْ جفونكَ تبصرْ - في اللّحدِ مهد الحياة».

ميزة الاحتفالية أنها جاءت لمتعة محبي نعيمة وعشاق الأدب، بل وعشاق الموسيقى والفن التشكيلي والغناء الأوبرالي؛ إذ تصدح حنجرة نادين نصّار بقصيدة ميخائيل «إم دي بي»، بأدائها الأوبرالي من دون موسيقى.

ويقدم الموسيقار باسم جمال (باسم النعيمي) مقطوعة موسيقية خاصة مستوحاة من محبة نعيمة، يهديها إلى روحه.

كما يغني الفنان شربل روحانا برفقة عوده قصيدة نعيمة «الطمأنينة» التي فيها يقول: «سقف بيتي حديد، ركن بيتي حجر، فاعصفي يا رياح، وانتحب يا شجر». وأغنية أخرى يؤديها روحانا وهي عبارة عن مقتطف من خطاب لنعيمة بعنوان «الخيال»، لحنه روحانا. والأغنيتان هما من أسطوانته الأخيرة، وبهما يختتم هذا اليوم النعيمي الأدبي.

الموسيقى من وحي كتابات ناسك الشخروب، كما اللوحات والصور الفوتوغرافية سترافق المحتفين بهذا اليوم حتى في فترات استراحاتهم؛ إذ يستمعون كخلفية لجلساتهم، إلى موسيقى وضعها الموسيقار الراحل وليد غلمية سنة 1978، باسم «مرايا الحنين» من 7 فصول، تصف حياة نعيمة بمراحلها المتعددة والمختلفة. كما تعرض لوحتان تشكيليتان؛ إحداهما من وحي كتاب «نجوى الغروب»، وأخرى مستقاة من أجواء «من وحي المسيح» رسمتهما للفنانة ريما علم. كما يشارك الأخوة عساف الذين نحتوا نعيمة أكثر من مرة، وأشهرها تلك المنحوتة الجميلة الموجودة في الشخروب.



مكتبة ميخائيل نعيمة (الشرق الأوسط)

تقول سهى التي ستكون من الذين يدلون بشهادتهم في هذا اليوم التكريمي الكبير: «ميخائيل نعيمة هو ذاتي المتكلمة، وهو ذاتي الصامتة؛ فهو الذي قال في مطلع كتابه «مذكرات الأرقش»: «الناس قسمان؛ متكلمون وساكتون. أنا قسم الإنسانية الساكت، وما بقي متكلمون»، وتكمل سهى: «إنه قسمي المتكلم والساكت معاً. السنوات التي قضيتها بحضوره الدائم الذي ينضح إنسانية، سيبقى دائماً المحرك الأقوى لأقدمه للناس كما عرفته».

هو يوم لم يكن ليكتسب أهمية بهذا الحجم لولا أن حضور ميخائيل نعيمة، وأمثاله من الأدباء الإنسانيين الذين جايلوه من جبران خليل جبران إلى أمين الريحاني ومارون عبود، وغيرهم، بات بمثابة طوق نجاة في زمن يغرق، ويزداد غرقاً بمادية صفيقة ومظلمة.

مواضيع لبنان
